الحلم والتحلم . . .

للاستاذ محمود عزت عرفة

— ٢ —

« إنما العلم بالتعلم ، والحلم بالتحلم ، ومن يتخير الخير يعطه ، ومن يتوق الشر يوقه »

حديث شريف

معاوية بن أبي سفيان :

استبد معاوية بأمر الشام بعد إذ جنح إليه سواده ، وقامت بنصرته أجناده ؛ فناوأ بهم « علياً » على عرش الخلافة ، وأضرم على أهل البيت وأبناء العراق من شيعة أمير المؤمنين نار حرب عوان أعادت أيام الجاهلية جذعة بعد أن عفّت على ترائها أخوة الإسلام ، ومسحت جراحها يدُ الشريعة السمحة . ومهما يكن من شأن معاوية فلقد كان صحابياً جليلا عامر القلب بالإيمان ، زاخر النفس بالورع والتقوى ، أشدّ ما يكون خليفة حدباً على الإسلام والمسلمين ، وأعظم ما يكون خشية على هذه البنيّة الناهضة أن تتصدع وتنهار ، وهو يرى جوائح الحرب تعصف بقوائمها وتتحيف من دعائمها .

ولعله كان يسبيل أن يراجع أمر نفسه ، ويتدبر السبيل للخروج بالمسلمين من هذا المأزق الذى التاثوا فيه عند ما قُتل « علي » بيد ابن ملجم ، فاستقر زمام الأمور بيد معاوية ، وتدلت إليه قطوف النصر ثمراً جنياً .

ولم يصعب عليه بعد ذلك أن يعالج أمر الحسن بن علىّ بما يكفيه مؤنة قتاله ويدفع عنه شرّ خلافه ؛ فالتأمت صفوف المسلمين وأغمدت سيوفهم ، وسمى معاوية هذا العام عام الجماعة[1] وكانت مسرته بالغة بما آل إليه أمر هذا الخلف ، وثقته فى مستقبله عظيمة عظمَ قوته فى حاضره ، ثابتة ثبات كفاحه فى ماضيه ؛ حتى لأقبل غداة النصر على أعدائه من بنى هاشم باسط اليدين بالمنحة وبالعفو وهو يقول :

يا بنى هاشم : والله إن خيرى لكم لممنوح ، وإن بابى لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيرى عنكم علة ، ولا يوصد بابى دونكم مسألة .

سلك معاوية نهجاً من التسامح امتلك به القلوب ، وبقدر اطمئنانه على ملكه كان تسامحه وإغضاؤه ، وعلى حسب مقدرته على الأخذ كان جنوحه إلى الإهمال والترك . يقول فى خطبة له مشهورة ألقاها بالمدينة عام الجماعة : « والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دَبْر أذنى وتحت قدمى » .

وكأنما كان يخجل معاوية أن يحول بين أعدائه وما يتشهّون من تناوله بألسنتهم ؛ بعد إذ تناولهم هو وجنوده غير راحمين طعناً وضرباً بأطراف الرماح وأسنة السيوف . ولقد دخل وهو خليفة على صعصعة بن صوحان العبدى — وكان سجيناً عنده — فقال له صعصعة فى حوار بينهما غير راهبٍ منه ولا خاش : أما والله مالك فى يوم بدرٍ مضرب ولا مرمى ، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لاحلّى ولا سيرى » ولقد كنت أنت وأبوك فى العير والنفير ممن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما أنت طليق ابن طليق ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنى تصلح الخلافة لطليق ؟

فقال معاوية : لولا أنى أرجع إلى قول أبى طالب حيث يقول :

قابلتُ جهلهُمو حلماً ومغفرة
والعفو عن قدرة ضرب من الكرم
... لفعلتكم !

ولقد أسبغ معاوية عطفه على أهل الشام لسابق مأثرتهم عنده ، وزادهم على العفو واسع العطية وجميل الإقبال ، حتى لأفضل مرة بمائة ألف على أبى جهم بن حذيفة حين قال له : نحن عندك يا أمير المؤمنين كما قال عبد المسيح لابن عبد كلال :

نميل على جوانبـــه كأنّا نميل — إذا نميل — على أينا
نقلّبه لنخـــبرَ حالتيْه فنخبر منهما كرماً ولينا

وقسم مرة قُطُفاً (جمع قطيفة) فأعطى شيخاً من أهل دمشق قطيفة فلم تعجبه ، فخلف أن يضرب بها رأس معاوية

(١) كان ذلك سنة ٤١ من الهجرة ، وقتل على سنة ٤٠ هـ .

فأتاه فأخبره . فقال له معاوية : أوف بنذرك ، وليرفق الشيخ بالشيخ !

كان تحلم معاوية إذن تكفيراً لما سبق من ضروب الأذى أو وفاء لما مضى من سوالف الجميل ... ولقد أراب ذلك كثيراً من المؤرخين — ممن سجلوا حوادث عصره — حتى لاتهموه فى هذا الحلم المتصنع ، ولم يثنوه له كفضيلة يحمد عليها ؛ وكان ذلك إما حقداً عليه وغمطاً لحقه ، وإما توسعاً فى استنباط سريرة نفسه ، واستكناه بواعث تصرفه ؛ جرياً على سنة للمتفلسفين والنقدة من أمثال الجاحظ ؛ فقد ورد فى كتابه البيان والتبيين[1] إنه قيل لشريك بن عبد الله[2] : كان معاوية حليما ! فقال : لو كان حليما ما سفه الحق ولا قاتل عليا ، ولو كان حليما ما حمل أبناء العبيد على حرمه ، ولما أنكح إلا الأكفاء . ثم يقول الجاحظ : وأصوب من هذا قول الآخر[3] : كان معاوية يتعرض ويحلم إذا أسمع ، ومن تعرض للسفيه فهو سفيه . وقال الآخر[3] : كان يجب أن يظهر حلمه ؛ وقد كان طار اسمه بذلك ، فكان يحب أن يزداد فى ذلك .

وكيفما كان الرأى فى حلم معاوية فقد وطد بهذا الخلق الكريم ملكه ، ومسح ببلسمه الجراح التى أسال دماءها ؛ ولم يكن ليلومه على هذا التصرف إلا غرٌّ مأفون ، أو نزق أرعن سفيه ، وكذلك كان ابنه يزيد الذى عتب على أبيه يوماً فقال : لقد أفرطت فى الحلم حتى خفتُ أن يعد ذلك جبناً (! !) فأجاب الوالد الحصيف : ليس مع الحلم ندامة ولا مذمة ...

أبو جعفر المنصور :

يعد الناس أبا جعفر مؤسساً لملك بنى العباس ، بما بذل فى ذلك من همة وأنفق من جهد ... لكن سبقه إلى تبوُّء عرش الخلافة أخوه أبو العباس السفاح ، ومن ثم يصطلح المؤرخون على تلقيب أبى جعفر بالمؤسس الثانى للدولة العباسية ، ولقد أفضى اللواء إلى يده بعد أخيه فنهض بأعباء الكفاح وحده ، وعنف على مناوئيه عنفاً مزق به أديمهم وفلّ حدهم ، إذ كانوا من القوة ومن الكثرة — وهو الضعيف بجدة ملكه القليل بعدة أنصاره — بحيث لا تجدى مع مثلهم المهادنة ، أو تدفع من بأسهم المطاولة والمصانعة . كان ملك بنى العباس كنبتة غضة لا تكاد تنهض على ساقها لتأخذ حظها من الغذاء والنماء ؛ إلا أن يحيطها بسياج متين من القوة والبطش يرد عنها كيد الموتورين من بقايا آل مروان ، وثورة الحاقدين من شيعة آل هاشم ، وسائر من يتربصون به الدوائر من العرب . ولم تكن قد تهيأت بعدُ لخلفاء بنى العباس تلك القداسة التى حظوا بها على تطاول السنين ، وإنما كانت أكثر العيون تنظر إليهم كدهماء ارتفعوا على ظبات السيوف إلى تلك المكانة العلية التى بلغوها ، فلا غرو إذن أن تكون ظبات السيوف وحدها هى التى تحفظ عليهم هذه المكانة ، وتقرها فيهم وفى أحفادهم من بعدهم[1] . قال عبد الصمد بن على العباسى للمنصور يوماً : لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو . فقال المنصور : لأن بنى مروان لم تَبْلَ رحمهم ، وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم ، ونحن بين قوم رأونا أمس سوقة واليوم خلفاء ، فليست تتمهد هيبتنا فى صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة !

تلك كانت سياسة المنصور التى أخذ نفسه بإتباعها مواجهة منه للمخاطر التى تتهدد ملكه ؛ ولقد بعثته الريبة على أن يبسط يده بالعدوان إلى أقرب الناس إليه ، من وزرائه وخاصته وأعوانه فضلا عن أعدائه والخارجين عليه . فاستقام للمنصور الأمر ، وعنت له لوجوه رغبة منها أو كرهاً ، حتى لعادت إلى نفسه — بعد حين تلك الطمأنينة التى تفيء معها النفوس إلى جانب من الحلم والإسجاح ...

(١) صفحة ١٦١ من الجزء الثالث . طبعة السندوبى .

(٢) كان شريك بن عبدالله النخعى عالما فقيها تولى القضاء بالكوفة والأهواز أيام المهدى ، ثم عزله الهادى . وقد ولد سنة ٩٥ هجرية بمدينة بخارى وتوفى بالكوفة عام ١٧٧ هـ .

(٣) لعل الجاحظ إنما كان يعنى نفسه بهذا الآخر الذى يحكى عنه .

(١) يضاف إلى هذا أن استيلاء العباسيين على الخلافة كان ينطوى على الخيانة لأبناء عمومتهم العلويين ، إذ كانت الدعوة إنما بدأت باسمهم منذ عهد بنى أمية حتى سلبهم العباسيون حقهم فيها ويدل على تبلور هذه الفكرة وشدة استيلائها على الأذهان ما حاوله المأمون فيما بعد من تحويل الخلافة إلى على الرضا بن موسى الكاظم ، حتى صده العباسيون عن ذلك باتخاذهم عمه إبراهيم بن المهدى فى بغداد ، وقد رجع المأمون عن رأيه وتخلص من على الرضا بطريقة غامضة ثم قدم بغداد ، فلاذ عمه بأخيال فرار حتى وقع القبض عليه عام ٢١٠ هـ .

وكأنما كانت نفس المنصور قد غثيت لنظر هذه الدماء التي أفاضها أنهاراً ؛ أو عادت إليه ثقته ووقاره بعد أن طاحت بهما رهبة الحوادث ، أو هو قد بلغ من نفسه هذا الزجر والتقريع الذي كان يلقاه به أمثال عبد الصمد بن علي من فضلاء أصحابه ، وذوي الرأي والنصيحة فيهم ؛ أو كأنما استشعر المنصور قلق الرعية من هذا الكابوس الجاثم فوق صدورها ، ورأى مرجل الحفيظة والسخط يغلي في قلوب الناس فمال إلى شيء من التحلم بقدر ما استراحت إلى ذلك نفسه ، وكان عجيباً — عند النظرة غير الدقيقة — أن يصدر مثله عن مثله !

ولعله كان لا يزال يعالج هذا الأمر من نفسه ، ويتكلف الدربة عليه ، ويتجرعه ولا يكاد يسيغه ... عند ما اعترضه المعترض في خطبة له وهو يذكر بالله تعالى فقال : أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين !

فكان من جوابه أن هش للاعتراض وبش ، وذكر الله واستعاذ به ثم قال : وما أنت يا قائلها فوالله ما الله أردت بهذا ، ولكن ليقال قام فلان فقال ، فعوقب فصبر ، وأهون بها من قائل لو كانت . وأنا أنذركم أيها الناس أختها ! فإن الموعظة الحسنة علينا نزلت وفينا ثبتت ... ثم أخذ بقائم سيفه وقال : إن بكم داء هذا شفاؤه ، وأنا زعيم لكم بشفائه ، فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به ، فما بعد الوعيد إلا الإيقاع ؛ وإنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله .

كان المنصور — وقد ظفر برؤوس أعدائه — لا يضيره أن يعفو عن أذنابهم ، وأن يضفي ثوب حلمه على من نهض مع الرؤساء من أوشاب الناس وعامتهم ، لأن إشمال العقوبة لا يخلو من الظلم ، والعفو عن العامة — وهم سريعو النفرة سريعو الفيئة — أقوم بأسباب الملك وأجمع لشمل الرعية ، وأكفل بتقدم الحياة وانتظام العمران .

قال المنصور يوماً لجعفر الصادق : قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربي — يعني عند ظهور محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي فيهم[1] — وقد رأيت أن أبعث إليهم من يعور عيونهم ويحمر نخلهم . فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين ! إن سليمان أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلي فصبر ، وإن يوسف قدر فغفر ، فاقتد بأيهم شئت ، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون ويصفحون . فقال أبو جعفر : إن أحداً لا يعلمنا الحلم ، ولا يعرفنا العلم ! وإنما قلت هممت ولم ترني فعلت . وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الإساءة إليهم ...

وتحقيقاً لهذه الأغراض البعيدة نفسها كان عفو المنصور عن سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، فإنه كان ممن شق عصا الطاعة ، وداهن في شأن إبراهيم بن عبد الله العلوي[1] . فلما صار إلى المنصور أمر الربيع فخلع سواده[2] ، ووقف به على رءوس اليمانية في المقصورة في يوم الجمعة ، ثم قال : يقول لكم أمير المؤمنين ، قد عرفتم ما كان من إحساني إليه وحسن بلائي عنده ، والذي حاول من الفتنة والغدر والبغي وشق العصا ومعاونة الأعداء ... وقد رأى أمير المؤمنين أن يهب مسيئكم لمحسنكم ، وغادركم لوفيكم !

وحمل إلى المنصور عبد الحميد بن ربعي بن خالد بن مِقْداق فقال : لا عذر فأعتذر ، وقد أحاط بي الذنب ، وأنت أولى بما ترى . قال : لست أقتل أحداً من آل قحطبة[3] بل أهب مسيئهم لمحسنهم وغادرهم لوفيهم .

وعفا المنصور عن عمه عبد الله بن علي بعد أن تمت هزيمته على يد أبي مسلم الخراساني ، واكتفى باعتقاله حتى مات في محبسه[4] .

وهكذا بدأ المنصور قاسياً شديد القسوة ، ثم تكلف من التحلم ما أفضى به إلى قريب من الحلم ، عند ما استتب له الأمر وبلغت الطمأنينة من نفسه مبلغها .

(يتبع) محمود عزت عرفة

---

(١) يلقبونه النفس الزكية . خرج بالمدينة عام ١٤٥ هـ وقتل في رمضان من نفس السنة ؛ قتله عيسى بن موسى قائد جيش المنصور .

(١) أخو النفس الزكية . دخل البصرة وأعلن البيعة لأخيه ، ثم استولى على الأهواز وواسط . قتله عيسى بن موسى في موقعة باخرى ، لخمس بقين من ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ .

(٢) شعار العباسيين ومن على ولائهم .

(٣) كان قحطبة بن شبيب الطائي أحد الدعاة العباسيين ومن نقبائهم الاثني عشر ، عقد له إبراهيم الامام اللواء بيده ، وصرفه إلى أبي مسلم في خراسان (سنة ١٠٣ هـ) فأبلى في قتال الأمويين البلاء الحسن .

(٤) كان عبد الله بن علي والياً على الشام ثم ثار عام ١٣٧ هـ طمعاً في الخلافة ، ولما هزم لجأ إلى أخيه سليمان بن علي بالبصرة فأسلمه إلى المنصور سنة ١٣٩ ، وظل في سجنه حتى مات سنة ١٤٧ هـ